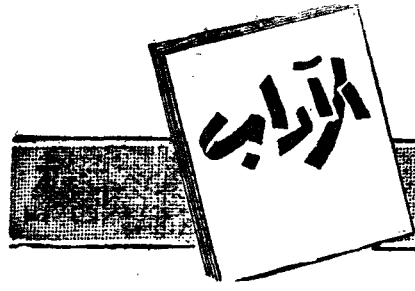

الأبحاث

بقلم الدكتور فؤاد زكريا

***

تضمن العدد الماضي ردين على مقال سابق كنت قد نقدت فيه بحثين ، احدهما بعنوان : « عندما يصبح الوجود اداة زور » للاستاذ جميل المناف ، والاخر بعنوان : « الحاجة الى فلسفة » ، للاستاذ غالب هلسا . وكل من الردين يمثل نمطا خاصا في استجابة الكاتب للناقد . فالرد الاول ، اعني رد الاستاذ جميل المناف ، انموذج للهدوء وضبط النفس والروح العلمية الصحيحة . وفيه حاول الكاتب ان يوضح فقرة طويلة ضربت بها مثلا لغموض اسلوب الكتابة عنده ، وعند بعض الكتاب الاخرين . وانا اعترف ، بيني وبين نفسي ، ان شرحه لم يجل كل غوامض هذه الفقرة، ولكن ليس هذا هو الذي يعنيني في الموضوع ، وانما الذي يعنيني هو تلك الروح الموضوعية التي تقبل بها النقد ، وصاغ بها رده عليه ، وهي روح لا يملك معها المرء الا اكبار صاحبها وامتداح موقفه.

اما رد الاستاذ غالب هلسا فقد سار في الاتجاه المضاد ، وهو الاتجاه الذي يمكن ان يوصف بانه شخصي عنيف الى حد ما . ففيه اشارة الى « سوء الفهم المتعمد » ، والى ان سوء الفهم ان لم يكن متعمدا « فالكارثة اكبر » ، والى انني « امزح » ، والى ان الكاتب لا يريد ان يظلم ذكائي ، الى اخر هذه التعبيرات التي تبعد باية مناقشة عن الطابع العلمي المحض . ومن المؤكد ان من حق الناقد ـ اي ناقد ـ ان يشعر بالدهشة عندما يجد ان ما يكتبه باسلوب موضوعي لا اثر فيه لاي عنصر شخصي ، يقابل بردود شخصية ، وكأن بينه وبين الكاتب شيء . وربما كان للسيد الكاتب بعض العذر اذا ادركنا ان بعض النقاد يستخدمون النقد سلاحا لارضاء حاجات شخصية ، او لمجرد اظهار العلم بلا داع ، او للانتقام من خصوم شخصيين . ولكن الامر حين يكون متعلقا بمسائل فلسفية ، كموضوع المقال الذي يدور حوله الكلام الان ، فان اختلاف وجهات النظر يغدو امرا طبيعيا ، ولا يمكن ان يعد تعبيرا عن اتهام شخصي من الناقد للكاتب ، لا سيما اذا لم يكن احدهما يعرف الاخر !

وعلى الرغم من انني افضل الاكتفاء بهذه الملاحظة العامة ، فانني استأذن الكاتب الفاضل في اقتباس انموذج من رده ، لكي استخلص منه ما يكشف عنه هذا الانموذج من دلالة على طريقته الخاصة في النظر الى النقد . فهو يقول : « ... ويرى الناقد انه كان علي ان اذكر اسباب تشاؤمي واعددها ، ثم انتقل الى دواعي تفاؤلي واعددها ، « وبذلك يستطيع القارىء ان يتتبع حجته ... بوضوح من البداية الى النهاية » . ثم يعلق على ذلك بقوله « هل يمكن للكاتب ان ينطلق في دراسته لاية قضية من احساسه بالتفاؤل او التشاؤم ؟ وكيف يتصور الدكتور ان يقوم بحث على تبرير احاسيسنا بالغضب او الرضا ؟ ربما كان هذا منهج الدكتور في البحث ، ولكنني افضل ... اعطاء اقل قدر ممكن لنزواتنا في التأثير » . كل هذه النتائج يستخلصها الكاتب من استخدامي للفظي « التفاؤل والتشاؤم » ، (وهما لفظان وردا في مقاله الاصلي بالفعل) ، مع ان سياق الكلام يدل بوضوح على ان من الممكن الاستعاضة عن عبارة « دواعي التفاؤل والتشاؤم » بعبارة « نقاط القوة والضعف » او « النواحي الايجابية والسلبية » ، وغير ذلك من التعبيرات التي تؤدي نفس المعنى . فلا نزوات هناك ، ولا احاسيس شخصية .

واذن ، فليس النقد مزاحا ، وليس خصومة ولا عداوة ، وانما هو محاولة لاستجلاء الحقيقة من خلال تقابل الاراء وتباين وجهات النظر . وآمل ان ينظر اليه كل كاتب على هذا النحو وحده ، حتى ترتفع كتاباتنا على الدوام الى مستوى الموضوعية العلمية ، ونستطيع ان نقدم الى شعوبنا تلك الافكار الحية التي تتعطش اليها ، بدلا من ان نقدم اليها مجادلات شخصية لا يفيد منها احد.

***

وسأبدأ تعليقي اليوم بمقال الاستاذ غالب هلسا (أيضا) في العدد الماضي ، وعنوانه « معركة حول الموقف والادب » . وقد تضمن المقال تحليلا ، من وجهة نظر الكاتب الخاصة ، لمواقف فئات هامة من الكتاب من تلك القضية الاساسية ، واعني بها : « وظيفة الادب في مجتمع متغير متفاعل » . وسوف أتعرض بعد قليل لمسألة انطباق الاوصاف التي قدمها على كل كاتب اختاره انموذجا لها ، ولكن المهم في الامر ان صاحب المقال قسم الكتاب الى فئتين : فئة الكتاب الملتزمين ، الذين يذهبون في التزامهم الى حد الدعوة الى تكريس جهود الادب كلها لتشجيع الجوانب البناءة في نشاط المجتمع ، مع تجاهل كل هدف اخر للادب ـ وفئة الكتاب « المنتفعين » الذين يشعرون بالضياع لانهم فقدوا وظيفتهم الاصلية بوصفهم كتابا يشاركون في توجيه حركة المجتمع . وهذه الفئة الاخيرة ، في رأي كاتب المقال ، ترى ان « الفن لا علاقة له بالوضع على الاطلاق ، فالفنان يعبر عما في داخله ولا يتعرض لما هو خارج عنه . ولا شأن للفن ، فيما يرى هذا الطرف ، بالمجتمع او بالظروف السياسية او الاجتماعية . » واقول في هذا الصدد انني لا اؤمن بان النماذج التي اختارها تندرج بالفعل تحت هاتين الفئتين ، ولكن المهم في الامر أن تحديد خصائص الفئتين يفتقر الى الدقة : اذ ان الكاتب الملتزم هو ، تبعا لتعريف الالتزام ، كاتب ذو ضمير حي ، لا يجد لزاما عليه ان يتخذ دور « التابع » على طول الخط ، بل انه قد ينتقد ويخالف اذا وجد ان حركة التقدم الاجتماعي تقتضي ذلك ـ واذا كان يتخذ دور « التابع » فترة معينة ، فليس معنى ذلك انه سيظل هكذا على الدوام . ومن جهة اخرى فان الكاتب « المنتفع » ـ بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ـ لا يشعر بالضياع ، ولا يأسف على شيء ، لان من طبيعة المنتفع ان يحرص على دوام انتفاعه قبل كل شيء ، ولن يأبه لفقدانه الوظيفة الاصلية « للكاتب » ، لانه لو كان يؤمن بهذه الوظيفة لما كان قد اختار ذلك الطريق.

ولعل من الظواهر الهامة التي يكشف عنها المقال موضوع البحث ، تلك الاهمية الكبرى التي اصبح النقد الادبي يحتلها في حياتنا الفكرية المعاصرة . ذلك لان الجزء الاكبر من طاقة عدد كبير من مفكرينا ، يبذل من اجل موضوعات ترتبط بطريق مباشر او غير مباشر ـ بمشكلات النقد الادبي . ومن هؤلاء المفكرين من لهم مواقف سياسية واضحة ، واراء صريحة في الاصلاح الاجتماعي ، بل ان منهم العلماء في بعض الاحيان . وقد يجد القارىء نفسه احيانا مضطرا الى التساؤل : هل للقضايا الادبية كل هذه الاهمية حتى تصبح محورا لنشاط هذه المجموعة الكبيرة

من مفكرينا ؟ أن للادب اهميته الخاصة لدى المشتغلين به ، ولكن هل تصل هذه الاهمية الى حد امتصاصه لجهود المشتغلين بفروع اخرى تبدو بعيدة عنه كل البعد ؟ وهل تضاءلت مشكلاتنا الى حد انها تقلصت في تلك المجموعه من المشكلات التي يعالجها نقاد الادب مرارا وتكرارا ـ كمشكلة الادب الخالص والادب الملتزم ، والادب القديم والحديث ، والادب العامي والفصيح ؟ هذه اسئلة لا بد ان تطرأ على ذهن المتتبع لاتجاهاتنا الفكرية المعاصرة ، ولكن الرد عليها يصبح واضحا عندما يدرك الحقيقة الاساسية الاتية : وهي ان القضايا الادبية تلعب في عصرنا دورا مشابها الى حد بعيد للدور الذي كانت تلعبه القضايا اللاهوتية في اوائل العصر الحديث للفكر الاوروبي . ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كانت تدور مناقشات مسفيضة بين المفكرين حول مسائل مثل آلية العالم او غائيته ، وحول طبيعة فعل الخلق ، وحول الارادة الالهية ، وهل هي متمشية مع القوانين الطبيعية أم قادرة على مخالفتها . وكانت هذه المناقشات تبدو في ظاهرها لاهوتية خالصة ، بحيث كان الباحث السطحي في فلسفة ذلك العصر خليقا بان يتساءل : ما شان الفكر الحديث بهذه المسائل ، ولم تشغل الفلسفة نفسها بهذه الامور ؟ ولكن الواقع أن الفلاسفة كانوا يعبرون ، من خلال هذه المسائل اللاهوتية ، عن مواقفهم الحقيقية من مشكلات العالم المحيط بهم ، وكانوا يتخذون من هذا البحث الذي يبدو بعيدا عن الواقع ، وسيلة للادلاء بارائهم في اكثر الامور واقعية . وهكذا الحال في قضايا الادب في بلادنا : فهي تبدو في ظاهرها منتمية الى ذلك المجال الذي يصنعه خيال الانسان ، ولكنها في حقيقتها وسيلة للتعبير عن اوضح المواقف السياسية. وحول خلافاتها الاساسية تتبلور اشد المواقف تعارضا بالنسبة الى قضايانا الاجتماعية الهامة . فالمنازعات الادبية هي في واقع الامر ستار يخفي وراءه صراعا ايديولوجيا اساسيا ، وهي قد اصبحت اليوم قياسا يدرك بواسطته موقع المفكر بالنسبة الى المعسكرات الفكرية الرئيسية التي تتجاذب عقل الانسان المعاصر . ومن هنا كانت تلك الاهمية التي تحتلها مناقشات النقد الادبي في حياتنا العقلية ، والتي قد تبدو لاول وهلة غير متناسبة مع المركز الذي يمكن ان يحتله الادب عامة في مجتمع له مشاكل اخرى اشد الحاحا واعظم تاثيرا في حياته الواقعية.

***

وقد استلفت نظري في العدد الماضي ندوة نشرت بعنوان «التراث العربي ، كيف نعمل على احيائه» ، واشترك فيها الاستاذان امين الخولي وابراهيم الابياري والدكتور محمد القصاص . وكان من الطبيعي ان اقبل على قراءة ما نشر من هذه الندوة بشغف ، لانها تمس موضوعا حيويا يدور حوله جدل محتدم في هذه الايام . ولكني اعترف ان نتيجة القراءة كانت مخيبة للامال . ذلك لان الندوة تحولت ، منذ بدايتها ، الى بحث لاليات عملية نشر المخطوطات ، والصعوبات المادية التي تواجه الناشر ، وكيفية جمع المخطوطات ، الى اخر هذه الموضوعات التي نستطيع ان نعدها موضوعات « تكنيكية » لا تمس جوهر المشكلة موضوع البحث . ولست اعتقد أن اهم ما ينبغي ان يناقش ، عندما نكون بصدد موضوع احياء التراث العربي، هو ضرورة تصوير المخطوطات او عدم ضرورته ، وسهولة الفهرسة او صعوبتها . ذلك لان هذه كلها معلومات « بيبلوجرافية » كان يمكن ان تكون موضوعا لندوة يشترك فيها امناء مكتبات . ومع اعترافنا باهمية الاساس « البيبليوجرافي » في نشر المخطوطات ، فان في احياء التراث العربي مشكلات ذات طابع اعم واهم من هذه بكثير . هناك المشكلات الفلسفية والفكرية والعقائدية المتعلقة بنشر هذا التراث . وهناك المشكلات المتعلقة بنوع المنهج الذي يطبق في عملية الاحياء ، ومدى الاستعانة باصول المنهج التاريخي في تفسير التراث . وقد حاول السادة المشتركون في الندوة ان يمسوا نقطة قريبة من هذه ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد اثيرت مشكلات مثل : هل نسمح لنفسنا بحذف فقرات « تجرح حياء العذارى او الشبان » ،و«هل يجوز للمحقق ان يصحح خطأ لغويا وقع فيه المؤلف او لا ؟ » . وهذه كلها مسائل متعلقة بآليات عملية التحقيق . وربما لم تكن عملية التحقيق باسرها هي العملية التي تعني قارىء مثل هذه الندوة او سامعها في الاذاعة ، وانما هي تعني الدارسين المتخصصين الذين يقومون هم انفسهم بنشر التراث ، وهم قلة . اما جمهور القراء والمستمعين ، وضمنهم المثقفون انفسهم ، فهم يريدون اجابات على اسئلة يرونها اهم من هذه كثيرا . مثال ذلك ان الصحف المصرية قد اثارت اخيرا موضوع « الاختيار » في نشر التراث ، نظرا الى ما لوحظ من اهتمام بنشر مخطوطات صوفية ، على حين ان بعض الكتاب آثروا ابداء المزيد من الاهتمام بالتراث العقلي العلمي . وهذا موضوع كان يستحق مناقشة اطول كثيرا من تلك الوقفة القصيرة عند مسألة نشر التراث العلمي والادبي . وفضلا عن ذلك ، فكيف ننتفع من التراث : ايكون انتفاعنا بالنشر وحده ، أم بالتعليقات والدراسات المقارنة ؟ واذا اعترفنا باهمية الدراسات المقارنة ، فهل ستتم المقارنة في هذه الحالة مع اتجاهات معاصرة للبحث المنشور او قريبة منه ، ام مع الاتجاهات الحديثة ؟ اعني هل نطبق المنهج التاريخي الصرف ، فنعيد احياء النص في جوه الاصلي على قدر ما في وسعنا ،ام نطبق المنهج التفسيري ، فنبعث في النصوص القديمة حياة متجددة عن طريق مقارنته بافكارنا المعاصرة ، على نحو ما يفعل الغربيون في الفلسفا ت اليونانية ، التي يعيدون تفسيرها في كل عصر تبعا للقيم السائدة فيه والاتجاهات العقلية الغالبة عليه ؟ وهل نقف من التراث موقف التبجيل ، ام موقف النقد والاختيار ، ام موقف التحدي ؟ في اعتقادي ان هذه اسئلة اساسية كان ينبغي على السادة المشتركين في الندوة ان يواجهوها صراحة ، اذ ان عملية احياء التراث العربي ستظل متخبطة ما لم نصل الى حلول حاسمة لهذه المشكلات الهامة ، وما لم نحدد بشجاعة موقفنا من الماضي ، وعلاقة هذا الماضي بالحاضر : أهي علاقة قداسة لا تمس ، ام علاقة تفاخر بنسب عريق ، ام علاقة انتفاع بخبرات سابقة في حياتنا الحاضرة ؟

***

وقد تضمن العدد الماضي الحلقة الثانية من سلسلة المقالات التي يكتبها الاستاذ مطاع صفدي بعنوان « الثورية العربية امام الماركسية ». وكان عنوان هذه الحلقة « مشكلة السلوب الانسانية » . ولا سبيل الى نقد هذا المقال الاخير الا اذا ربطناه بالمقال السابق عليه ، لان الاثنين يؤلفان وحدة واحدة . ففي مقال العدد الاخير نقرأ مثلا تعبيرا مثل « الامة البروليتارية » ، وهو تعبير لا يفهم الا في ضوء المقال السابق عليه. فماذا يقول المؤلف عن هذا الموضوع في ذلك العدد ؟ انه يقول :

« ان الانفجار الداخلي للمجتمع الرأسمالي سوف يبقى معطلا مؤجلا الى امد بعيد ، ما دامت البروليتاريا في هذا المجتمع تؤلف هي نفسها طبقة مستغلة ، وجزءا من المجتمع المستغل ككل بالنسبة للمجتمعات النامية الاخرى . وهذا ما يجعل استراتيجية المعركة بين الرأسمالية والبروليتاريا تتحول من النطاق الاجتماعي الى صراع « قومي » بين دول استعمارية وشعوب جديدة ناهضة ... وهكذا انتقلت المعركة الطبقية داخل المجتمع الواحد ، الى صراع عالمي بين قوميات رأسمالية استعمارية ، وقوميات شعبية مناضلة ، يمكن وصفها بانها قوميات بروليتاريه .

« وبدلا من ان يقوم اتحاد البروليتاريا العالمية ، متجاوزة انظمتها الرأسمالية في مجتمعاتها ، فان الاتحاد يتحقق اليوم بالتدريج ، بين القوميات البروليتارية الجديدة ، كما في منظمة الوحدة الافريقية ، ومؤتمرات دول عدم الانحياز ، وغيرها من وسائل التقارب بين الدول النامية المتحررة من الاستعمار القديم ، والمناضلة ضد الاستعمار الجديد . وهكذا فان مصير البروليتاريا الاجتماعية ، بالمعنى الماركسي ، اصبح مرتبطا بمصير نضال القوميات البروليتارية عبر العالم كله » » .

واضح اذن ان الكاتب يريد ، عن طريق استخدام تعبير « القومية البروليتارية » ، الذي ورد مرارا في مقال العدد الماضي ومقال العدد السابق عليه ، ان يشير الى مفهوم جديد يحاول به ان يتجاوز التعارض بين الفلسفة الطبقية والفلسفة القومية ، وذلك عن طريق الجمع بينهما في مركب واحد ، وبذلك تظهر « القومية البروليتارية » ، و « القومية

الرأسمالية الاستعمارية » ، اي بالاختصار ، « القومية الطبقية » .ولكن هل يستطيع المرء ان يحسم النزاع بين الفلسفات القومية والفلسفات الطبقية بهذه الطريقة الهينه السريعة ، طريقة الجمع بين الاثنين في « قومية طبقية » ؟ وهل قدم المؤلف من الحجج ما يبرر دعوته الخطيرة هذه ؟

فلنحاول اولا ان نحلل المسلمات التي ينطوي عليها كلام المؤلف ضمنا ، وان لم تكن قد وردت فيه صراحة . انه يسلم ضمنا بالامور الاتية :

١ ـ ان كل دولة تكون ، من الناحية الطبقية ، كلا متجانسا .

٢ ـ ان هذا الكل المتجانس يتحدد شكله الكامل تبعا لنظام الحكم فيه .

٣ ـ ان الدولة باكملها تكون رأسمالية استعمارية اذا كانت حكومتها كذلك ، وتكون بروليتارية اذا كانت قد تخلصت من المرحلة الاستعمارية.

٤ ـ او ان الدولة باكملها تكون رأسمالية استعمارية اذا كانت غنية مستغلة ، وتكون بروليتارية اذا كانت فقيرة يستغلها الغير .

هذه هي المسلمات الرئيسية التي تنطوي عليها فلسفة « القومية الطبقية » عند الاستاذ مطاع صفدي . وفي اعتقادي ان وضع المسألة على هذا النحو يجعل من اليسير على المرء اصدار حكم على هذه الفلسفة، وادراك مدى تماسكها او عدم تماسكها من وجهة نظر المنطق السليم . فلنتناول اذن كلا من المسلمات السابقة على حدة بالنقد والتحليل :

١ ـ لست استطيع ان اتصور ان كاتب المقال ينكر فكرة تعدد الطبقات الاجتماعية داخل الامة الواحدة . ولكن اطلاقه اسم طبقةواحدة، كالبروليتارية او الرأسمالية ، على امم باسرها يفترض هذه المقدمة حتما . وان لم يكن يفترضها ، فقد كان من واجب الكاتب ان يحدد الطريقة التي يوفق بها بين التعدد الطبقي داخل البلد الواحد ، وبين تسمية الدولة كلها باسم طبقة واحدة ، وهو ما لم يفعله في مقاله.وعلى اية حال فان فكرة تعدد الطبقات لا تحتاج الى اثبات ، ويكفي ان الانتقال من مفهوم الاتحاد القوميالىمفهوم الاتحاد الاشتراكي ، في التجربة المصرية ، يعد تأكيدا عمليا لهذا التعدد .

٢ ـ ومن المؤكد ان نظام الحكم في اية دولة ، وما يتخذه هذا النظام من سياسات ،ليس في معظم الاحوال انعكاسا دقيقا لطبيعة الوضع الشعبي القائم في هذه الدولة . فما زالت الحكومات مفروضة على شعوبها في جزء كبير من العالم ، بحيث لا يستطيع احد ان يقول ان الطريقة التي تسلك بها هذه الحكومات تعبر عن الاتجاه القومي في بلادها . وليتذكر الاستاذ مطاع ما حدث اخيرا في الانتخابات الامريكية : فهل يتصور احد ان الشعب الامريكي قد خلا من الرجال حتى لم يعد فيه الا جونسون وجولدووتر ؟ هل أصاب العقم هذا الشعب الى حد انه لم يجد خيرا من هذين ليسلم احدهما مقاليد بلاده ، ويحكمه في مصير العالم ؟ ومع ذلك فقد كان الاختيار حتميا امام الشعب الاميركي : اما جونسون او جولدووتر ، والاختيار الحتمي ليس اختيارا علىالاطلاق. والنتيجة معروفة مقدما ، وهي ان يتولى الحكم اناس من طبقة معينة ، لا يمكن ان يقول احد انها تمثل غالبية هذا الشعب . وهكذا يكون من الممكن ، في احوال عديدة، ان تتولى الحكم شخصيات او حكومات لا تمثل بلادها تمثيلا صحيحا ، وبالتالي لا يصح ان تعد تصرفاتها معبرةعن اراء شعبها ومصالحه الحقيقية . وبالاختصار ، فان الهوة القائمة بين نوع الحكومة التي ترسم السياسة ، وبين التكوين الحقيقي للشعوبالتي تمثلها ، تجعل من المستحيل وصف الشعب او الامة باسرها بصفات مستمدة من طريقة سلوك حكومته .

٣ و ٤ ـ وبناء على ما قلناه في المسألة السابقة ، فمن الخطأ ان نحكم بان القومية باكملها تكون استعمارية اذا كانت حكومتها كذلك ، او انها بروليتارية لمجرد كونها قد تخلصت من الاستعمار . ولنتأمل مثلا حالة فرنسا اثناء الحرب الجزائرية : فقد كانت منقسمة على نفسها ، وكان فيها قطاع ضخم يناصر الجزائريين ، ويضعف من قدرة النظام الحاكم على البطش بحركة التحرر الجزائرية . وكان بين هذا القطاع وبين المناضلين الجزائريين اتصال وتفاهم معروف . ومن المؤكد أن الحركة الجزائرية كانت ستخسر كثيرا لو كانت قد طبقت فلسفة الاستاذ مطاع صفدي ، ونظرت الى فرنسا باكملها على انها قومية استعمارية . وبعبارة اخرى ففي الاتصال المتبادل بين جبهة التحرير الجزائرية وبين العناصر التقدمية في فرنسا طوال حرب التحرير ، وفي الفوائد الهائلة التي حققها هذا الاتصال لحركة التحرر الجزائرية ، تكذيب عملي صريح لنظرية « القومية الطبقية » كما يقول بها الاستاذ مطاع صفدي .

ومن جهة اخرى ، فليس تجاوز الدولة للمرحلة التي كانت فيها خاضعة للتسلط الاستعماري دليلا على انها قد اصبحت « قومية بروليتارية » ، ولدينا ابلغ دليل على ذلك في المستعمرات الفرنسية السابقة في افريقيا ، وغيرها من الدول التي تعد نامية ، فقيرة ، متخلصة من الاستعمار ، ولكنسياستها لا تؤهلها لان تكون « بروليتارية » بأي معنى من المعاني .

وحين يطبق الكاتب فلسفته العامة هذه على الامة العربية ، يطلع علينا برأي خطير ، هو « ان الامة البروليتارية التي تتميز سلوبها بانها سلوب حضارية كيانية اولا ،هي المحرك الحقيقي ، في صراعاتها معالقوى الاجنبية السياسية والاقتصادية ، طيلة مراحل الحضارة العربية الى يومنا هذا » ... هذا حكم خطير كل الخطورة ، ولكن هل يمكن اثباته في ذلك العمود الواحدالذي خصصه له الاستاذ مطاع في مقاله السابق، الذي تضمن اكثر من صفحتين في تحليل « كانت » و « هيجل » واشياع هيجل ؟ هلاستطيعان اقتنع بان « المقياس البروليتاري القومي هو الذي يحل محل المقياس الطبقي ، الاقتصادي الخالص » ، من هذا العرض الخاطف الذي قدمه الكاتب في مقاله ؟

ان الكاتب يريد تنبيه قارئه الى ان نضال الامة العربية في سبيل التحرر يتضمن عنصرا جديدا ، هو تأكيد قوميتها بالقضاء على النفوذ الاجنبي الدخيل ، اذ ان الاستغلال الذي تعاني منه كان استغلالا خارجيا، على حين ان الاستغلال الذي كانت تعاني منه البلاد التي طبقت المنهج الماركسي كان استغلالا داخليا ، من طبقة لطبقة اخرى . وفي وسعنا ان نلاحظ على هذا الرأي ما يأتي :

١ ـ انه ينطبق على كل الشعوب المستعمرة ، لا على الامة العربية وحدها ، لان في كلاستعمار كبتا للعناصر الاصيلةعلىيد عناصر دخيلة.

٢ ـ هل يستطيع الكاتب أن يثبت انه لم يكن هناك استغلال داخلي خلال تاريخ الامة العربية ،وهل تكفي لهجة التقرير السريعة التي اكد بها ذلك ، لاثبات قضية خطيرة كهذه ؟

٣ ـ والاهممن ذلك كله ، ان المؤلف يريد ان يقول ان الشعوب التي تستغلها شعوباخرى ، ينبغي ان تكون نقطة انطلاقها هي تأكيد قوميتها ضد القومية الغاصبة ، ويطبق هذا على الامة العربية فيقول ، باسلوبه الذي يروعني تعقيده ، « ان الامة البروليتارية التي تتميز

صدر حديثا ديوان :

مرفأ الذكريات

للشاعر هلال ناجي

يطلب من
دار الاندلس ـ بيروت
المكتبة العصرية ـ بغداد

سلوبها ... » الى اخر العبارة التي اقتبسناها من قبل . ولكن هذه بديهية لا ينكرها احد ،ولا يوجد اي مذهب سياسي تقدمي ، في عالم اليوم ، ينكر ان تأكيد قومية الشعب ضد قومية الغاصب هو نقطة البداية الاولى في عملية التحرر التي تقوم بها الشعوب المستعمرة (مع عمل حساب التناقض داخل الشعب المغتصب ، والاستفادة منه على النحو الذي اشرنا اليه) . ولكن ما الذي يحدث بعد ذلك ؟ ماذا يكون دليلنا في المرحلة التي نتجاوز فيها حالة « الانسلاب » السياسي او القومي ؟ ان التخلص من الاستعمار كاد ان يصبح حقيقة واقعة في العالم العربي ، وفي معظم ارجاء العالم ، فما هي الايديولوجية التي نستعين بها الدول العربية عندما يتم تخلصها فعلا مما يسميه المؤلف « بالسلوب الحضارية الكيانية » ؟ من المؤكد ان فكرة القومية الطبقية ، اي البروليتارية ، لن تعود هي الدليل الهادي لمثل هذه الامم في مرحلة ما بعد الاستعمار ، ولزام علينا ان نلتمس حلا اخر ، او نفكر في المسألة كلها من جديد .

هذه بعض الملاحظات التي اثارتها في ذهني كتابات الاستاذ مطاع صفدي في العددين الاخيرين من مجلة « الاداب » ، وارجو ان تكون هذه الملاحظات حافزا الى المزيد من التفكير في المشكلات الخطيرة التي تتعرض لها هذه المقالات .

القاهرة — فؤاد زكريا

القصائد

بقلم الدكتور احمد كمال زكي

***

ايضاح :

الشاعرة وفاء وجدي حزينة جدا ، فلقد رأت عبد العظيم ناجي يغزوها بقصيدته « ثم مات » وكان نشرها في العدد العاشر من الاداب ونقدتها انا في عدد الشهر الماضي . وقدمت لي قصيدتها التي نشرتها في مجلة المجلة في مارس (اذار) سنة ١٩٦٤ بعنوان « العيد » على انها المعقل الذي تعرض لغزو عبد العظيم ، وحددت بدقة المواقع التي ضربت منه في الصميم .

وفي جلسة مع الدكتور سهيل ادريس بالقاهرة وقفته على الواقعة فدهش اولا ثم تذكر — وذاكرته لا تخطئه — ان قصيدة عبدالعظيم قديمة عنده ولعلها ارسلت له كما يقول قبل نشرها في العدد العاشر من الاداب ببضعة اشهر .

اذن فالامر للتوارد ، ولست استبعد باي حال ان يقع شاعران او اكثر على « فكرة » بعينها ، بل قد يبلغ بهما الامر احيانا الى ان يتم بناءهما الفني على موتيفات واحدة . وقديما حدث ذلك ، وهو لا يزال يحدث وسيظل يحدث حتى تثبت الصلات الانسانية ويموت الماضي او يوجد الفن الذي لا يعترف بالموروث !

ان جوهر قصيدتي وفاء وجدي وعبد العظيم ناجي شيخ عاش ثم مضى ، ولكن ارتباط كل منهما به كان يختلف فاختلفت التجربة . فوفاء تراه كما يراه الصغار في اوروبا وامريكا بابانويل ، واما عبد العظيم فالشيخ عنده تجربة حب وان يكن فيه ملامح من شيخ وفاء من حيث هو حان وطيب يشفف بالصغار ويشفف به الصغار .

وفي رأيي ان قصيدة « العيد » جيدة ومن احسن شعر وفاء ، ولكنها لا تصل الى المستوى الذي حلق فيه عبد العظيم على الرغم من انه يكاد يستعمل بعض موتيفاتها . ان هذا قد لا يرضي الشاعرة ، ولكنه يتهم عبد العظيم في شاعريته وهو شيء لا اراني قادرا على توجيهه قط!

وما دام المجال مجال ايضاح فاذكر ايضا ان الشاعر عبده بدوي صاحب قصيدة « انا والعالم » التي نشرت في العدد الماضي خابرني بالهاتف — كما يقولون في دمشق — ليؤكد ان يدا امتدت الى قصيدته تلك بالعبث . ولما كنت انا الذي ارسلت القصيدة للاداب منقولة بخطي عن نسخة من خطه رديئة الرسم — مع ان قلمه منمنم — فقد حملني وزر العبث وحملته راضيا .

ولكني عندما عدت للقصيدة بدم بارد كما يقال لم اجد فيها ما يؤاخذني عليه الشاعر الا اسقاطي القافية ذات الروي الدالي في قوله :

ستظل غريبا ستعاني
الخوف المجهول .. .. ..

ثم لحظت لاول مرة اختلاط الصوتين في القصيدة بحيث لم استطع ان اتبين — كناقد — اين هو من الاخر . وعندما اقول ذلك لا اعني ان «عطاء» الشاعر كان ناقصا مبتورا ، بالعكس فقد عبر عن مأساة الضياع الموحش فاجاد ، او قل صور ووصل كما يقول ابركرومبي .

والواقع ان عبده بدوي في هذه المرحلة من حياته الشعرية يقوم بتجربة درامية داخل الاطار الغنائي للقصيدة العربية ، لانه اكتشف فيما يبدو ان « الحوار » ليس كمثله شيء في رصد الضجر والملل اللذين يبدوان كما لو اصبحا جزءا من الكيان الاجتماعي بله الكون كله !

ولكننا حين نمضي في قراءة قصائده ، ولا سيما هذه التي بين ايدينا نحس ان اداته لا تزال ثرية في ابعادها الغنائية . وهي تفقد جزءا ضخما من تراثها في الخروج المباشر الى الدراما كفعل لواقع متحرك في فراغ . ان فكرة المأساة تبدو مجرد تهويمة وسط زحام الغناء ، ولا يكشف التشبث بها على هذا النحو الجديد عن عمقها الحقيقي.

انا لا اريد ان احول بين الشاعر وتجربته الفنية ، وانما اريد ان تتباين الاصوات في استقلال واضح . اريد ان تكون كل اعماله كالنصف الثاني من قصيدته « انا والعالم » واضحا يؤكد الفكرة او يبسطها او يعلل لموقف الغربة والخوف والوحدة .

ومع هذا الوضوح نريد ان نسأل : اترى يكتفي اليوم بالانسان الذي يواجه المجهول الصامت بالرفض الخائف ؟ لماذا يبدو تصويره كأنه قدر لا مهرب منه ؟ اهو انهزام ؟ وفيم البحث اذن ، بل فيم بحثه هو كمفكر وككاتب وكشاعر له شوق حقيقي الى المعنى الانساني الكبير .

قد يهتدي عبده بدوي الى ان البحث عقيم ، ولكن ليس معنى ذلك ان يستسلم الى الابد .

معنى المسئولية :

قصيدة « سراب » لمحمد صبري سليم وقصيدة « الاخرون » لمحيي الدين احمد عبد الرحمن من الاعمال التي تثير قضية الفن بصفة عامة ودواعي الابداع في الشعر مع رصد لمهمته على النحو الذي يختلف فيه الدارسون ، ولا يمكن بطبيعة الحال تجاهل هذه القضية شاء الادباء ام لم يشاءوا فقديما قيل :

الشعر صعب وطويل سلمه

واليوم يقال مثل هذا وينفذ الى جوهره بكل الوسائل لاكتشاف عناصره المنطقية والتلقائية على حد سواء . واذا كان الشعراء هم الذين يحملون « الاجنة » التي تنتفض وتريد ان تعيش وتبرز وتثور ليجيشوا كما يقول محيي الدين في قصيدته الحلوة فانهم ايضا عبدة الخيال والوهم والساعون وراء السراب كما يؤكد صبري سليم .

ولكن القضية : هل يكفر الشاعر بشعره اذا عدم الجدوى ؟

اما صبري سليم فهو يعلن افلاسه ، ولكن محيي الدين عبد الرحمن لا يريد ان يفعل مؤكدا ان « الاخرين » هم الذين يجعلون خلق الشعراء مسخا مشوها كخنفساء ! لهذا كان من الطبيعي ان تؤدي هذه الازمة — ازمة الابداع الشعري — الى الكفر والى الثورة والى ان يكون العمل في اخر الامر محض حماسة او مجرد غناء .

وليس يهم الان ان نتوسع في مناقشة القضية بهذه الكيفية، اللهم الا اذا جعلنا القصيدتين نقطة انطلاق الى غير التقييم الفني لهما .وعلى الرغم من اني اكره دائما ان اصدر الاحكام مكتفيا غالبا بالتفسير فانني ارى ان قصيدة محمد صبري سليم ينقصها اغلب ما لا تفتقده قصيدة محيي الدين .

لمـاذا ؟

هل لان محيي الدين اشعر ؟ ام لان صبري سليم لم يبلور فكرتـه او لم يستكمل اداته الفنية؟

لست ادري على وجه التحقيق ، ولكني احس ان قصيدة الاول ينقصها عنصر الاثارة فضلا عن اتكائها على الكليشهات التي لا مبرر لها :

يا عمري .. يا نجما في التيه تبدد
ماذا يجديك اذا رحت تنادي
محبوبا تاه
اترى ينفع قيس او تغني ليلاه ؟

وعلى النقيض من ذلك يبدو محيي الدين وهو يحاول الا يتحـدث الى قارئه مباشرة عن تجربة شخصية برغم مناجاته لحبيبته التـي تشبه ان تكون هنا قضيته كانسان له رسالة وعليه تقع مسئولية .

تشرين والغرق .. قصيدة

انا احب شعر حسن النجمي ، ورأيي فيه انه معلم من معالـم شعرنا المعاصر . وفي هذه القصيدة التـي اهداها الـى الذين تثير عودة تشرين الثاني في نفوسهم شيئا من حق فلسطين ، يذكرني بموضوعـه المفضل وبموقفه المسدد .

ويتحدث النجمي حديثه المألوف ، وفي هذه المرة داخل عموديـة واضحة ، ليقرر عن طريق غير مباشر ان الفارق بين شاعر عادي وشاعـر اخر هو مقدار ما فيصياغته من حيوية على الرغم من انه يجول فيحيز ضيق . وتظهر اصالته دائما بما تمثله عباراته من قيم ، فاذا ذكرنا بعـد ان من هذه العبارات تتقاطر الايقاعات والمعاني والبساطة والفكرة والايحاء وذلك في تركيز غنائي مؤثر وبلا زخرفة امكننا ان نضع ايدينا بسهـولة على طبيعة شاعريته .

ويهمني ان اذكر انه يجيد في احايين كثيرة استخدام العنصر الدرامي الذي يظنه بعضنا دخيلا على الشعر مع انه جزء منه ما تصورنا انالشاعر يحاور شخصا اخر ـ قد يكون هو نفسه ـ ويخاطبه ملونا بخطابهالوانا تلقي ضوءها على وعيه الرشيد .

وفي هذه القصيدة يتضخم ذلك العنصر منذ يتوجه الى ساعـة الارق مرة والى عابد الثار مرة اخرى ، فيبدو متوترا متشوقا الى الموت متحديا ويائسا وحاقدا في آن واحد .

كل هذا جميل ، الا ان القبيح سقوطه في هنات عروضية لسـت ادري كيف يتورط فيها وهو يمتلكالاداة السوية. واذكر هنا ان القصيدة من البحر الكامل وضربها احذ كعروضها ، جاريا على هذا النحو :

متفاعلن متفاعلن فعلن

وقد حرص هو على ان يجعل الضرب بروي القاف في كلالقصيدة متوسعا احيانا في استخدام الحشو على ضوء الرخصة التي يبيحهـا الشعر المرسل بصدد عدد التفعيلات . غير ان موسيقاه نبت احيـانا فافلتت عدة ابيات من قيود الوزن ، الا ان اكون انا عاجزا عن القـراءة الصحيحة فيرجع النشاز الموسيقي الي ، وفيما يلي هذه الابياتالنابية :

جندي هنالك خيمته صبرت
يا عابد الثار احرقهم به احترق
اني نذرت له ـ غب النزوح ـ دمي

لم يكف يسوع .. قصيدة

عبد الرحمن غنيم شاعر اخر ممن اعجب بشعرهم وفي قصيدته«لم يكف يسوع» يثير المشكلة التي اثارها النجمي ، ويقرر في سهولة الشاعر القادر ان اليهود اذا كانوا جرموا بصلب المسيح قديما فهم اليـوم يجرمون بصلب مليون عربي ...

ولم يمت المسيح فقد عاش فكرة وعقيدة ورأيا ، ولـه انصاره تغص بهم الكنائس في لندن وباريس وروما . والعجيب ان هؤلاء الانصارالذين كاد لهم اليهود مذ هموا بالمسيح اعانوهم على قتل العرب في فلسطين ، ولم يقتلوا !

هذه هي فكرة القصيدة ، والبيئة الروحية التي يتشوف اليهـا الشاعر هي ربوعنا السليبة التي بدأت تفقد موضعها على الخريطة . انها بلد الليمون والزيتون ، بلد الشباب الذاهب والمرح الزائل ، ومـا عساها تكون لو ظن اهلها انهم ماتوا الى الابد ؟

ان القصيدة تقرع ناقوس البعث والحياة ، وفي الفقرات الاولـى منها يعرض علينا الشاعر سلسلة من الصور الحسية التي تحدد ابعـاد المأساة . فثمة الذئاب السود التي لا ترحم وهم اليهود ، وثمة الصلبان في كل مكان وفوقها العرب، وثمة اقوام قيل انهم قد عرفوا الله وهـم المسيحيون .

والجميل ان الشاعر ينقلنا بسرعة عبر استهلال خطابي غير موفق الى الجو الذابل المؤلم ، الا اننا في وسط هذا لا نملك الا التوقفحيث يتصلب جرس الالفاظ على هتافه المؤثر :

ما اجحد قلبك يا انسان
لم يكف يسوع
لم يكف يسوع
مليون من اهل يسوع
قد صلبوا
قد صلبت حتى للرب ربوع !

والصلبان على نقيض الاشياء الحية ، تنتحب ، وقد تتأجج تحتهـا الحمم فتعمق الكارثة وبعمق الالم .

قصائد اخرى

وتبقى بعد ذلك ثلاثة قصائد اجملها « الروح المغتربة » للشاعـر بدر توفيق وتليها قصيدة « اغنية وثنية » للشاعر قيس السامرائـي وبعدهما بكثير « خمس اغنيات » للشاعر عبد المنعم الانصاري لا لانهـا عمودية ، وانما لانها مشوبة بالكثير من الالفاظ التي اصبح استعمالهـا لا يثير غير الاحساس بالتبلد كالحمام بمعنى الموت والانام بمعنى الخلق ، وفضلا عن ذلك فثمة مظاهر الفتور والتحجر في التعبير نفسه بحيـث يفوتنا بسهولة المعنى الشعري الذي يريده حتى لكأنه بلا تجربة على الاطـلاق .

والواقع ان القصيدة بهذه الصورة التي طلع بها الانصاري علينا لا تعني الا انه لا يرى العالم امامه بوضوح وبفلسفة محددة ، وانما هـو يراه من خلال الصور التقليدية التي جمدت شعرنا واوقعت كثيرا مـن الشعراء في شرك القديم .

انا لا اتهم الشعر العمودي وانما اتهم الانصاري واساله لمـاذا لا يريد ان يكون حيا بالقدر الذي يسمح له ان يبلور حسه بلا قيـد قافية ؟ افثن رانت عليه البيئة المحافظة يفقد انسانيته ؟

وتقف قصيدة بدر توفيق في الجانب المقابل تماما لقصيدة الانصاري .. متماسكة بعيدة كل البعد عن تجمد القوالب ، وان يكن فيها مـن روح صلاح عبد الصبور ظلال غير كثيفة . واكبر الظن ان بدر توفيـق سيكون واحدا من الذين يقيمونتصورهم على المواقف التي تـؤدي بالكثيرين الى التسليم للغربة والى التمسك بالرموز المنتزعة مـن تصوراتنا الشعبية في مستواها الرفيع .

واما قصيدة قيس السامرائي فلا ادري ماذا اقول فيها لانـي لا اتبين فيها منفذا الى التعرف على حقيقة الجزيئات المكونة للبنية الكلية لها . فهي من نوع النماذج المغلقة التي يحسها المتلقي ولا يتبين مـاذا وراءها . حقا ان بعض رموزها قد يصلح مفاتيح لفهمها على نحو او اخر، غير انها تظل بعد ذلك باعثة على الحيرة والتساؤل .

ماذا يريد الشاعر ؟

انني قد اقنع بموسيقيته ، وقد تكفيني مهارته وعلاقات صـوره بالوانها الملتهبة المفعمة بلهب الجنس . ولكن هل هذا يكفي لازعم انـه يشكل « وحدة » متكاملة من خلال الطابع الغنائي العام ؟

ان اي عمل فني يجب ان يمثل تصميما معينا خاصا او يبدي وجوهـا مختلفة ـ بالنسبة للمتلقين المختلفين ـ على ما قد يرى المشاهدون في

لوحة لا تعدم اي مظهر عيني ملموس لبعث الفكرة العامة ، ويوم يعجز العمل عن بعث تلك الفكرة فانما يجب ان يبحث فيه عن وجوه النقص، لا سيما اذا كان الناقد مكتمل الثقافة والادراك .

ومع ذلك فانا لا ازعم اني هذا الناقد ، فما رأي الشاعر قيس السامرائي ؟

القاهرة — احمد كمال زكي

القصص

بقلم الدكتور عبد الغفار مكاوي

***

ليكن هذا الحديث لقاء يجتمع فيه الصديق بالصديق . لقاء بلا قضاة او متهمين ، ولا مجاملة او انتقام ، نتبادل فيه تجربة بتجربة ، ونتشاكى هما بهم . ليكن، على قلة تجاربنا وحيائها وسذاجتها في معظم الاحيان ، ظلا يستريح فيه الصدر على الصدر ، ويتعاون الاخوة على شقة الطريق .

القصة الاولى في العدد الماضي للاستاذ سليمان فياض بعنوان « الغريب » . تتناول موضوع عمال التراحيل الزراعيين في وادي النيل، وهو موضوع خصب لا اظن ان في مصر موضوعا اخر عن شقاء البشر يمكن ان يمس القلب كما يمسه . ولا اعتقد ، فيما اعلم ، ان احدا قد طرقه قبل ذلك في روعة واخلاص يحيي حقي في مجموعته « دماء وطين». موضوع زاخر بالامكانيات ، لولا اننا نحبس انفسنا في المدينة ، ويمر الزمن في الانشغال بالتقاليع الفكرية وبهموم اكل العيش فنتبلد ونتجمد، وننسى الجذور التي تربطنا باهلنا المنسيين في القرى والكفور والنجوع، تحت شمس لا ترحم ، بين براثن البلهارسيا والدوسنطاريا ، في اعماق تعاسة طال عليها النسيان فاستسلمت لخالق الارض والسماء .

وسليمان فياض احد الكتاب المرجوين في هذا الجيل . يعرفه القارىء من مجموعته «عطشان يا صبايا» ، ويذكر اخر قصة له — او لنقل اخر ملحمة لـ نشرت على صفحات هذه المجلة ، وكان اسمها ان لم تخني الذاكرة هو « الحريق » ، كما يعرف ان احب الموضوعات اليه هو الريف ، وان بلغ به الطموح احيانا ان يتجاوزه الى الصعيد الانساني والعالمي . القارىء يذكر هذا كله ، ويعجب بصبره واصراره ، وان تمنى في بعض الاحيان لو انه اتجه بنفسه الطويل ودقته في سرد التفاصيل الى القصة الطويلة ، او لو انه عمق تجاربه القصصية بتجارب فكرية وعلمية تكبح جماح المبالغة والتهويل (الميلودرامي) الذي لا يخطئه لديه.

والقصة تصور واحدا من عمال التراحيل سماه الغريب ، يجلس مع رفاقه على شاطىء الترعة ينتظرون المقاول الذي تعاقد معهم ولم يحضر ليدفع اجورهم . ويطول بهم الانتظار دون جدوى ، كما يشتد بهم الظمأ والجوع ، ويقطعون اشجار النخيل في ارض مجاورة ليأكلوا ، ويحسون بجريمتهم قبل ان يطلع النهار . وحين يصر الغريب على البقاء وحده لينتقم من المقاول ، ويشفق عليه ابن بلده « امين » فيجبره على الذهاب معهم تقوم بينهما مشادة تنتهي بمقتل الغريب وبقاء امين الشاب ليأخذ بتارهم .

والقصة تحتشد بالشخصيات ، دون ان تستطيع تمييز واحدة منها تمييزا حقا ، وتموج بالاحداث والوان الصراع ، دون ان تركز على حدث او تختار صراعا ، وتزخر بوصف النهر والشجر والارض ومع ذلك فلا تخرج منها بصورة محددة عن البيئة ، ويختلط فيها الماضي البعيد والحاضر الراهن ، ويتداخل الواقع الغليظ مع الحلم الذي يقترب من حافة الحمى او الجنون ، فلا تعرف اين الخيط الرئيسي الذي يمكنك ان تمسك به من بين الخيوط المتشابكة المعقدة .

ان الكاتب يمعن في الجزئيات الى الحد الذي يكاد يطغى على الكل. انه لا يترك اشارة او نأمة الا ذكرها ، ولا يدع خلجة او همسة الا وامعن في تحليلها . وكانه يخشى ان هو اغفل جزئية بسيطة ان يغيب عنك الاحساس الشامل ، مع ان اللمحة — وبالذات في القصة القصيرة التي تعتمد على الاختيار والتركيز — قد تغني عن التفصيل ، واللمسة قد تعفي من كثرة النقاط والخطوط . انه حين يصف القاعة التي وضعت فيها الام وليدها « الغريب »يزحم الصورة بكل ما يتصل بها وما لا يتصل من التفاصيل ، وكانه يأبى الا ان يوفر عليك جهد التصور .فالفار الصغير الذي يحرك ذنبه وذيله موجود هناك . والذكريات التي تدور في ذهن الوالدة او الوالد حاضرة ، وحركات الاجسام مرصودة بعناية ، والكائنات المادية شاخصة امامك وكان يد الكاتب قد لمستها ومسحتها قبل ان تمسك بالقلم . هذا شيء قد يكون محمودا في الرواية الطويلة، اما في القصة القصيرة فربما كان عيبا ، وربما اعانت مداومة النظر في النماذج العالية المركزة على تلافيه . اقول هذا ولا ابرىء نفسي ، على قلة تجاربي وتواضع حالها ، من الوقوع فيه .

ومثل هذا يقال عن زحام الصور والفقرات التي قسم اليها القصة. ولو كان لهذا التقسيم ما يبرره من النقلات الزمانية او المكانية او الفكرية لبدا مقنعا . ولكنه على حاله التي عرضها علينا يشتت شمل القصة ، ويثقلها باجزاء لا يفيدها ان تقتطع منها ، ويشرحها الى اعضاء متفرقة لا يكتمل منها جسد حي . فالفقرة الاولى تتحدث عن ولادة الغريب ، وحين نتقدم في قراءة القصة نحس انها غير مرتبطة ارتباطا عضويا حيا بالفقرات التي تليها . خاصة اذا رأينا ان الطفل المولود سيفاجئنا في الفقرة التالية شيخا عمره مائة وعشرون سنة (ولماذا مائة وعشرون على وجه التحديد ؟ الم يكن يكفي ثمانون او تسعون او حتى مائة ؟) وهنا نضع ايدينا على عنصر المبالغة التي تخالطها السذاجة . المبالغة في حشد التفاصيل التي تجني على الانطباع الكلي، والمبالغة في وصف الحركات الظاهرية التي لا تكشف مع ذلك عن الاعماق بل تطمرها، والمبالغة في الحوار الذي يجري على السنة الشخصيات ، بحيث يبدو في النهاية غير مقنع ولا مبرر من فطرة او طبيعة . فهو الى جانب انه فصيح اكثر مما ينبغي — وكم كنت اود لو اخذ موقفا وسطا بين العامية والفصحى وقرب التركيب الفصيح من التركيب الشائع على السنة الفلاحين — يبعد عن الصدق في معظم الاحيان . انك تسأل نفسك اين هو الاجير المسكين ، الدائخ في بلاد الله لخلق الله ، تحت وهج الشمس وفي دوامة العرق والفقر والتراب، يسافرون به من بلد الى بلد ومن كفر الى كفر ، يشحن في اللوري كما تشحن البهائم الى السلخانة ، ينتقل من مقاول الى مقاول كما تنتقل السلع والعبيد ، اين هو هذا الاجير المسكين الذي يتفلسف كل هذه الفلسفة ؟ والمصيبة انه ليس فيلسوفا فحسب ، انه كذلك ثائر وخطيب وملحد ايضا اذا لزم الامر ، لا يتورع عن ان يرفع قبضته الى السماء لا بل « انه يود لو يبصق عليها ، لو يغرق كل شيء في بصقته » . من حق اجير التراحيل بالطبع ان يفكر على طريقته في الحياة والموت والمصير، وان يحس اكثر من غيره بشقاء الحياة وتعبها . اما ان يتسلل الى كيانه احد المثقفين لينكلم عن شقائه بلغته ، فهو امر لا يمكن ان يكون مقنعا . وكيف يقنعني الغريب الذي يتفكر في دورة الزمن الابدية،وينطق احيانا بلسان هيراقليطس او نيتشه او يتمرد على لسان كامي او ماركس؟! انظر الى هذا الخاطر الذي يحدث به نفسه : « المقاول يأكل الانفار . والانفار يأكلون النخلة الصغيرة . والارض تأكل الكل . ولسوف يأتي يوم يؤكل فيه الجميع : الارض والشمس والنجوم . آكل ومأكول .دائن ومدين . دورة دائبة ، لا يعرف متى تنتهي » . او حين يدعو احد الانفار على المقاول المجهول بأن يدخل جهنم لانه سرب عرقهم فيصيح الغريب — لاحظ انه شيخ يبلغ مائة وعشرين سنة من عمره ويعيش على ارض الريف الموحد بالله — : جهنم ؟ ماذا يفيدنا ذلك ؟ او حين يبلغ به السخط مداه فيصرخ : لا ادري لماذا يسكت الله عن هذا الظلم ؟ » .

خواطر جميلة بغير شك . ولكن كيف تصدر عن نفر من انفار التراحيل ؟ — لنكن اذن صادقين . واذا لم نستطع ان نعيش بين الانفار والكادحين ، فلنحاول على الاقل ان نفهمهم على قدر الطاقة ، حتى يأتي

اليوم الذي تواتينا فيه الفرصة او تلهمنا الشجاعة فنخلع عنا ـ ولو لايام ـ رداء البرجوازية ، ونعايش الفلاحين والعاملين ونشقى معهم ونكتب عنهم . هذا الحلم الجميل العسير ! (ليت التفرغ الذي تمنحه حكوماتنا مشكورة للادباء والفنانين ان يكون تفرغا للاندماج في السواد الاعظم من جماهيرنا ، نقضيه في عالمهم السفلي الذي آن لنا ان نعود اليه ، بعيدا عن شعارات المذهبيين والمتحذلقين ، بدلا من ان يقضيه اصحابه بين جدران مزدحمة بالكتب والاوراق !) .

***

ومن ارض المجد العربي الذي رواه اكثر من مليون شهيد بدمائهم الدافئة نلتقي بقصة « بسكرة » للاستاذ جنيدي خليفة ، وما اعزه واندره من لقاء .. واذا كان السطر الاول من القصة يكشف عن القصاص الاصيل ، فنحن لا نكاد نقرأ السطر الاول من هذه القصة حتى نكتشف اننا امام قصاص اصيل ، تتدفق لغته تدفق النهر الهادىء . ان بطلها « العيد » على وشك العودة من غربته الثانية الى اهله وبلده بسكره ، تساوره الشكوك عن امه واسرته ، ويوسوس له قلبه انهم يخفون عنه اشياء كثيرة ، ويطمرون صمتهم برسائلهم ذات العبارات المألوفة. ويستقل الطائرة في منتصف النهار . وتتيح له رحلته الخطرة ان ينسج تأملاته عن الخطر والموت والعدم الذي يمكن في كل لحظة ان يسقط فيه . وتتيح له مواجهة الخطر ان يسترسل في تأملاته عن الزمن ، وان يكتشف انه اضاع عمره في « الغربة » و « الغرابة » . ومع ان تجربة الموت تجربة شاملة تدخل في كل لحظة من لحظات عمرنا ، وليست مجرد (محطة) نصل اليها في نهاية الطريق ، فان احساسنا بها يزداد عمقا كلما واجهنا الخطر . واين نحس بالخطر اذا لم نحس به ونحن نركب طائرة؟ ومع انه لم يسبق لي ان ركبت طائرة ـ فقد كنت في اسفاري الطويلة اركب الباخرة مضطرا بحكم رخصها ! ـ ففي استطاعتي ان اتصور مدى الخطر الممتع الرهيب الذي يحس به من يركبها ، وهو يعلم ان العدم المطلق يخالطه كما يقول الكاتب في كل لحظة ، وانه ان مات مات وسط « خلاء » لا وسط « ملاء » كما يحدث لمن يموت وهو يسير على قدميه .. ويسترسل العيد في افكاره على طريقة التداعي النفسي الحر ، وكلها افكار تدور حول العدم واللاشيء والملاء والخلاء اللذين يتكرران اكثر من مرة في سياق حديثه مع نفسه . ولكن فكرة الخطر المحدق به لا تزايله لحظة ، لا بل فكرة ان يشاهد بنفسه موته . ومع ذلك نشعر ان الخطر الحقيقي المحدق به ليس هو فراغ الموت والعدم بقدر ما هو فراغ الغربة والاغتراب ، والخطر من ان يصبح لا شيء ، وهو الذي يعذبه الشوق الى ان يصبح شيئا بين اشياء هذا العالم ، روحا تتصل بناسه وزهره وخمره ، وبالاخص بامه التي لا يفتأ يسأل نفسه ان كانت لا تزال حية .

ويعود العيد في النهاية الى بيته ، ويجد امه عجوزا محنية الظهر تتوكأ على كرسي ولكنها حية تقبله « قبلتين عجوزين » . ها هو قد عاد نهائيا الى بسكره او الى الجزائر ، وانتهت الرحلة المحفوفة بالخطر ، ولعلها كانت رحلة الوطن العظيم عبر الموت والدم والاخطار الى مرفأ السلام المجيد .

ومع ان التداعي الحر كان مفككا اكثر مما ينبغي له ، ومع ان القصة كانت تكون اكثر تماسكا لو ان تشتت الافكار واسترسالها كان ينطلق ويعود الى مركز واحد هو الخوف على حياة الام ـ وهي هنا الجزائر نفسها ان كنت قد اصبت الفهم ـ ومع ان القصة في بعض مواضعها تأخذ طابع التقرير المحايد الذي يخلو من الدفء والتوتر ، ويزدحم بالتأملات المجردة عن العدم والفناء ـ مع هذا كله فالقصة تبشر بقصاص نرجو على يديه الخير الكثير ، بحيث لا يسعنا الا ان نقول له ولصحابه : مزيدا يا اهل الجزائر !

***

واما القصة الاخيرة « صلاة سريعة » فهي لكاتب التقي به لاول مرة ، هو الاستاذ نديم خشفة ، وابادر فاعترف بتقصيري في حقه ، اذ لم يسبق لي ان قرأت له . وتتصدر القصة حكمة صادقة اليمة توحي بأننا سنقرأ شيئا يتصل بحاضرنا العربي الذي يغلي ويتعذب شوقا الى الغد المأمول : « لا اعرف من المخطىء فيهم ومن المصيب ، ولكن الذي اعرفه ان دم الانسان قد سفك » . ويصدق ظننا في الحقيقة . فلا نكاد نصل الى السطر الثامن حتى نعرف ان قصتنا تدور في مدينة عربية منع فيها التجول ، ودوى صوت الرصاص . وربما كان من المفارقات الاليمة ـ التي يبدو كأنها لم تعد تثير دهشتنا لفرط تكرارها في واقعنا العربي ـ ان يكون اسم البطل « عيد » مع انه يشهد مأتم الكرامة ، وان يكون امام مسجد ، فلا تشفع له حرمته ان يمتهنه الجنود بأحذيتهم واسلحتهم ويقتادوا شيخه معهم ليصلي على جثث هؤلاء المقتولين المجهولين ، الذين يقذف بهم الجنود في بطن حفرة . يا لسخرية الكارثة التي تجبر الانسان على الصلاة بقوة السلاح ! ان الطغاة يريدون ان يختموا طغيانهم بالختم الالهي ، وان يؤكدوا ان ضميرهم ما يزال حيا على الرغم من كل شيء . ولم لا؟ ألم يقتلوا من قتلوا تحت شعار ينادون به ، لعله الوطن او العروبة بل لعله الدين نفسه ؟! شعار يتغير كثيرا ، اما الجريمة التي ترتكب باسمه فلا تتغير ؟!

والقصة بعد مركزة ومتماسكة وطبيعية ، لا تكاد تجد فيها كلمة زائدة عن موضعها ، ولا فكرة متحذلقة او طفيلية . انها تخفي وراء هدوء السرد فيها كل عذاب المأساة التي نعيشها ، والتي لا شك في اننا سنجتازها بخير ما دام فينا من يسجلها بهذا الصدق واننا سنعبرها حتما الى غد قرب او بعد لا يسود فيه الظلام ، ولا يمتهن الانسان . تحية لنديم خشفة وللبلد الذي تحدث عنه ، وان كنت لا لا اعرف من اي بلد عربي هو .

***

واخيرا تأتي قصة همنجواي « فكان لطيف حسن الاضاءة » من ترجمة الاستاذ صبري حافظ الذي نقرأ له في نفس العدد بحثا قيما عن الجزائر . وقد كفاني المترجم بتعليقه المتحمس الممتاز عناء الكلام عنها ، وخيرا فعل . فمعلوماتي عن همنجواي قاصرة ومحدودة ، وعمل كهذا العمل الرائع كان خليقا ان يضطرني للكلام عنه الى قراءة ما لم اقرأه بعد لصاحبه حتى تكتمل الصورة ، والبحث كما هي عادتي التي لا استطيع التخلص منها عن مراجع طويلة لكتابة سطور قليلة .

فلنحمد للمترجم صنيعه ، ولندع اصدقاءنا من قصاصي العدد الماضي ولندع انفسنا معهم الى النظر فيه وفي امثاله والتعلم منه .؟

القاهرة

عبد الغفار مكاوي

فنـدق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بادارة : حلمي المباشر